مقالة (الحواس)

مخطوطة نادرة لعبد اللطيف البغدادي

سورها على النسخة الأصلية وحققها وعلّق عليها

الدكتور فيصل دبدوب

(وألقاها في المؤتمر الطبي العربي السابع المنعقد في القاهرة عام ١٩٦٨)

لا جرم بأننا في دور نهضة حديثة تهدف إلى رفع شأن هذه الأمة . ولما كان من أهم أسباب رفعة الأمم إحياء تراثها ونفض غبار الإهمال عن ذخائرها وكنوز أجدادها وإظهارها للعالم بثوب جديد يتناسب مع ما لها من جلال القدم وجمال العلم ، صورت هذه الرسالة عن النسخة الفريدة المودعة في الاسكوريال باسبانيا (الفردوس المفقود) وهي « مقـــالة في الحواس » لعبد اللطيف البغدادي أورد ذكرها ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء وابن شاكر الكتبي في « فوات الوفيات » والرسالة لم تطبع من قبل وليس لها نظير في المكتبات العالمية وهي مكتوبة بخط مغربي جميل . ومقالة الحواس خالية من اسم الناسخ وتأريخ الاستنساخ .

وصف الرسالة :

عدد صفحات الرسالة سبع صفحات ونصف الصفحة وعدد أسطر كل صفحة خمسة عشر سطراً فيكون مجموع أسطرها (٩٦) ستة وتسعين سطراً ، وفي كل سطر تسع كلمات تقريباً فيكون مجموع كلمات الرسالة (٨٦٤) ثمانمئة وأربعاً وستين كلمة تقريباً .

موضوع الرسالة :

أما موضوع الرسالة فالحواس الخمس وخلاصة ما يقرره فيها البغدادي يدور حول تعليل وتحليل وتصنيف مدركات الحواس تعليلاً وتحليلاً فلسفياً ، ويمكننا أن نجمل قول عبد اللطيف في هذه الرسالة بالنقاط التالية :

١ – أن كل حاسة تختص بصنف من المدركات ولها عضو خاص بها عدا حاسة اللمس فهي سارية في الجلد حيثما وجد عصب الحس ، ويقول إنها مقدمة على سائر الحواس .

٢ – إن حاسة الذوق تأتي بعد حاسة اللمس من حيث صحة الإدراك .

٣ – إن إدراك حاسة الشم أضعف من إدراك حاسة الذوق .

٤ – ويقرر بأن الروائح اشتق لها أسماء من الطعوم مثل رائحة طيبة وكريهة وحادة وهكذا .

٥ – ويقرر أيضاً بأن حاسة الشم ليست ضرورية لكل حيوان فبعض الحيوان محروم منها ، وبعضه ضعيف حاسة الشم كالسمك مثلاً ، وأقوى ما تكون هذه الحاسة في الكلاب وبعض الطيور .

٦ – ويقول بأن حاسة البصر تأتي بعد حاسة الذوق من حيث قوة الإدراك وصدقه .

٧ – ويذكر بأن حاسة السمع هي آخر الحواس رتبة وأقلها إدراكاً .

٨ – ويشير إلى أن الصوت ينتشر في الهواء على شكل دوائر أو قطع دوائر حتى يقرع طبلة الأذن فيحدث إدراك السمع .

٩ – وذكر كذلك بأن حاسة السمع ليس لها أسماء خاصة بمدركاتها ، بل إن أسماءها مستعارة من مدركات البصر أو غيره من الحواس ، فيقال صوت طويل وقصير وصوت طيب ولذيذ وكريه وهكذا فأسماء مدركات هذه الحاسة منقولة فلا تنقل إلى حاسة أخرى .

موجز حياة مؤلف الرسالة :

هو موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن علي بن سعد الشافعي ويعرف بابن اللبّاد .

موصلي الأصل بغدادي المولد ، ولد ببغداد في أحد الربيعين عام (٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م) خمسمئة وسبع وخمسين وتوفي فيها في (١٢) الثاني عشر من محرم سنة ستمئة وتسع وعشرين (٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م) ودفن في الوردية عند أبيه وذلك بعد أن خرج من بغداد وبقي غائباً عنها خمساً وأربعين سنة .

دخـــل الموصل عام (٥٨٥ هـ) خمس وثمانين وخمسمئة ودرس على (الكمال بن يونس ودرّس في مدرسة ابن مهـاجر المعلقـة ودار الحديث التي تحتها ، وأقام في الموصل سنة ثم انتقل إلى دمشق ، ومنها إلى عـكا حيث قابل ابن شدّاد ، والقاضي الفاضل ، وقصد بعدئذ القـاهرة وتعرّف فيها على ابن ميمون ، والشارعي ، وياسين السيميائي ثم قصد القدس ، ومنها توجه إلى دمشق ، ثم عاد إلى القاهرة ، وتركها لما ملكها الملك العادل متوجهاً إلى القدس وعاد من القدس إلى دمشق ، ثم توجه نحو بلاد الروم ومنها إلى حلب ، وبعد أن أقام فيها فترة من الزمن قصد بغداد في طريقه إلى الحج وتوفي فيها كما ذكرنا قبل قليل .

عصره :

كان عصره عصر توقف في العلوم لتداعي أركان الخلافة وانشغال الأمة في صد غارات الصليبيين والقضاء على المعتزلة قبلئذ ولم تخل الأمة العربيـة رغم ذلك من علماء أفذاذ من أمثال البغدادي ظهروا هنا وهناك ، فأناروا الطريق للركب الحضاري الذي سار على دربهم .

مصنفاته :

ألّف البغدادي مايزيد على مئة وخمسين كتاباً ورسالة ومقالة ، ولا عجب فالرجل كان « متَعلَمة » أي دائرة معارف عامة كما يقول (هوتسمان) ، والمطبوع من كتبه هو :

١ — الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، أو آثار مصر . طبع في طنجة عام (١٧٨٩ م) وفي باريس ، وفي مصر عام (١٢٨٦ ﻫ) وفي اكسفورد عام (١٧٠٢ م) وعام (١٨٠٠ م) كذلك وطبعت ترجمته بالانكليزية مؤخراً في لندن مع صور للمخطوط بالعربية .

٢ — ذيل فصيح ثعلب : وقد طبع كتاب التلويح للهروي عام (١٢٨٥ ﻫ) وعام (١٣٢٥ ﻫ) .

نص الرسالة

المقالة الأولى في الحواس

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر

قال الشيخ الإمام أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي مقالة في الحواس ومدركاتها وطبيعة مراتبها ونسب بعضها إلى بعض .

وقد علمت أن الحواس خمس وانها تشترك في إدراك أغراض الأجسام ، وأن كلاً منها يختص بصنف من المدركات ، ولا يشترك اثنان منهـا في صنف واحد من المدركات معـاً ، وكل واحد من الحواس له عضو خاص به هو آلة له ماخلى حاسة اللمس فانها سارية في الجلد بأسره ، وفي كثير من اللحم الكائن تحته ، وبالجملة في كل ما أنبت فيه عصب الحس ، وهذه الحواس على طبقات ، فأولهـا ما يدرك من محسوسه أعراضه الثابتة فيـه

والمتصلة به وذلك عند مباشرته له كحاسة اللمس في إدراك الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والخفة والثقل واللين والصلابة والملاسة والخشونة ونحو ذلك ، وهذه الحاسة عامة للحيوان ومقدمة على سائر الحواس وهي أثبت معرفة وأقوى إدراكاً وأصدق حكماً ، وتتلوها حاسة الذوق ، وهي تختص باللسان ، ويدرك من محسوسها الطعوم المتحللة منه المختلطة بالرطوبة المتحللة في اللسان ، وإنما يكون ذلك بانفصال شيء من المحسوس واتصاله بالحاس عند مباشرة اللسان ما له طعم من الطعوم الثمانية ، وهي عامة للحيوان وإدراكها قوي وحكمها صادق ، ولا تكاد تغلط إلا نادراً وعند حلول آفة بها . وتتلوها حاسة الشم وهي تدرك من محسوسها الروائح المتحللة منه المنفكة عنه المختلطة بالنسيم المستنشق الواصل إلى الدماغ ، وذلك يكون عند مباشرة حاسة الشم الهواء المتنسم الذي انفصل عن الجسم ذي الرائحة أو اختلط به شيء من لطيفه المنفصل عنه الحامل للرائحة ، وإدراك هذه الحاسة أضعف من إدراك حاسة الذوق ، ولكن بينها مناسبة قوية وشبه ظاهر حيث أن البخار الحامل للرائحة شبيهاً بالرطوبة الحاملة للطعم ، ولما كانت حاسة الذوق تباشر الجسم من مكان قريب وبتوسط خاص منحصر ، كانت أصدق وأقوى من حاسة الشم ، إذ كانت حاسة الشم تدرك محسوسها بتوسط كثير مشترك ولا تباشر الجسم [ذي] (في المخطوط (ذ) فقط) الرائحة بذاتها بل بوساطة ومن مكان بعيد ولذلك صار يشتق للروائح أسماء من الطعوم وينقل إليها منها فيقال رائحة طيبة وكريهة وحادة وحريفة وأمثال هذا ، وإن كان للروائح من ذلك أسماء تخصها كمثل النتن والذفر [ ][1] ونحو ذلك ، وليست هذه الحاسة ضرورية

(١) كلمة غير واضحة .

لكل حيوان ، بل كثير من الحيوان لا تكون له هذه الحاسة ، أو تكون له ضعيفة كالسمك . فأما الإنسان فان حاسة الشم فيه وإن كانت ضعيفة أضعف منها في كثير من الحيوان ، إلا أنها أصدق إدراكاً وأقوى تمييزاً لفصول المشمومات ، وأقوى ما تكون هذه الحاسة في صنوف من الطير وصنف من الكلاب.

ويتلو هذه حاسة البصر وهي تدرك من محسوسها اللون وما يتصل بذلك مثل التخطيط والترتيب والوضع والشكل والقرب والبعد والحركة والسكون ، من غير أن تلامسه كاللمس ، ومن غير أن ينفصل من المحسوس شيء يتصل بالحاس كالذوق أو يتصل بالمؤدي إلى الحاس كالشم ، لكن لا بد لمقابلة البصر للمبصر وارتفاع الحاجز بينهما ، وإنما تدرك منه أحواله الغائرة فيه أو ما هو بمنزلة الغائر فيه ، وهو أيضاً قوي الإدراك قليل الكذب سهل تبين الغلط . ويتلوها حاسة السمع وهي آخر الحواس رتبة وأقلها عموماً وضرورة وأضعفها تمييزاً لبطول مدركاتها ، وإنما تدرك في الأجسام الأعراض المنفصلة عنها غير الغائرة فيها ، أعني الصوت الحادث عند مصادمة الأجسام التابعة لحركاتها ، وهو أثر حادث في الهواء تابع لتصادم الأجسام بقوة ، ولا يزال ذلك الهواء المتأثر بذلك الأثر يكسب بمجاورة أثره حتى يصل إلى العُصب المفروشة على (الصماخ) التي هي بمنزلة الرق على الطبل . وهناك موضع السمع وقوة الإدراك وهذا الأثر الحادث في الهواء عند إدراكه صوتاً إنما هو دوائر أو قطع دوائر ، لأن الهواء بسيط لا يقبل ما كان من الأشكال ذا زوايا ، ولئلا يختلف الإدراك ، لأن الزاوية ليست كالضلع ولا المدور كالمثلث والمربع والمخمس وغيره ، ولأجل ذلك ضعف إدراك قوة السمع عنه تمييز فصول مدركاتها ، وصارت نسبتها إلى حاسة البصر في الإدراك والنقص عنها كنسبة حاسة الشم إلى حاسة الذوق في الإدراك والنقص عنها . فلذلك

لا يوجد لأنواعه وفصوله أسماء خاصة بحسبه ، بل مشتقة من أسماء أنواع مدركات البصر أو غيره من الحواس ، ومنقولة منها إليه . كقولهم صوت طويل وقصير وأصلُهُ في السطوح المبصرة . وكقولهم صوت طيب ولذيذ وبشع وكريه وأصله لحاسة الذوق ، وكقولهم صوت منعش ورخيم وند وليّن وشديد وحار وبارد وثقيل وخفيف ، وأصل هذا كله لحاسة اللمس ، وكذلك قولهم كلام (مفهس ومبتج] (هكذا وردت في النص) وكلام [له ما] (هكذا في النص) وعليه رونق ، وكله مستعار من مدركات البصر .

ويقال كلام حلو وعذب ونغم كذلك . وقد ينتقل إليه العام كحاسة الذوق الذي هو جنس لها أو كالجنس ، فيقال ذقت الكلام وذقت النغم ، وذلك إذا تأملت فصوله الخفية أو معانيه الغامضة . وقد يقال : وزنت الكلام والنغم والصوت وألفيته موزوناً وذلك إذا أمعنت في تمييز مطابقة الكلام لمعناه ، أو في تمييز فصول الصوت وتناسب النغمات ، وأصل الوزن كحاسة اللمس والبصر ولا يشتق لهذه الحاسة أعني حاسة السمع أسماء كما لحاسة الشم لأن أسماء هذه الحاسة معظمها منقول فلم يحتمل أن ينقل مرة أخرى .

وحاسة السمع في الإنسان أقوى إدراكاً وتمييزاً لفصول الصوت من سائر الحيوان ، ولذلك صار يدرك حدود الحروف وفصول الكلام ويفرق بين أجناس النغمات ، فصار لذلك يفهم الكلام ويدرك اللحون والنغمات ويتعلم الموسيقى ويزداد تعجبه بالكلام والتذاذه به وطربه بالنغم وانفعاله منه ، إلا أن فصول النغم الوسيقية أخف إدراكاً من فصول حروف الكلام ، لأن حاجته إلى فهم الكلام أشد من حاجته إلى الكلام ، ولا حاسة أخص بالعقل وأجدى عليه من اللمس ، ولذلك كانت حاسة اللمس عامة في الحيوان وضرورة له ، وكانت حاسة السمع أخص الحواس وأخصها بالقوة الناطقة ،

وكانت منفعتها في الإنسان أكثر منها في سائر الحيوان ، وكان حظ الإنسان منها أعظم من حظ سائر الحيوان .

تم القول والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد وآله الطاهرين وسلم كثيرا .

التعقيب على الرسالة :

١ — إن غايتنا من نشر المخطوط هو إظهار حلقة مفقودة في سلسلة تاريخ العلوم وغايتنا كذلك إظهار دور العلماء العرب في دفع عجلة العلم إلى الأمام في العصر الوسيط ، ومدى مساهمتهم في إغناء التراث العلمي آنذاك كذلك .

٢ — وأن نبين كذلك بأن بين طالبي الحقيقة العلمية نسباً يجمعهم على تفاوت الزمان والمكان ، يستحث همم الأحياء منهم ويدفعهم إلى إحياء تراث الغابرين .

٣ — إن أسلوب مؤلف الرسالة جزل رصين قوي الألفاظ متين بناء الجُمل ، خال من الزيادات فكأن البغدادي أحس بإحساس (كوتيته) إذ يقول في قصة فاوست ناقداً للأبحاث النظرية التقليدية ، (إنه لا قيمة للألفاظ البتة حيث لا توجد المعاني) .

٤ — تبرز أمامنا — في هذه الرسالة — الروح العلمية بوضوح وجلاء تلك التي استطاع البغدادي أن يرسيها على قواعد فلسفية لغوية ، فالمقال هو عبارة عن مصنف طبي فلسفي لغوي .

٥ — سار صاحب الرسالة على طريقة الأفذاذ من علماء العرب أولئك الذين يتخذون من دقة اللاحظة العلمية ومن الوسائل الفلسفية

واسطة لتعليل الغوامض العلمية التي يعجز الواحد منهم على معرفة كنهها بوسائله البدائية آنذاك .

٦ — سبق صاحبنا علماء زمانه بقوله بأن الصوت يسير على شكل دوائر وأشباه دوائر .

٧ — والبغدادي أول من اهتم بصدق الإدراك حين صنّف الحواس فأعطى حاسة اللمس الأولوية .

وختاماً أقول :

إن اعترض معترض قائلاً ، مالنا والعلم القديم ؟ والإنسان الحديث أصبح يغوص في الماء ويصعد في الأجواء ويفجر الذرة ويسخر الطبيعة ؟ فأقول ما قاله الدكتور جورج سارطون : إننا لكي نكون من خيرة أبناء هذا الجيل بحق ، يجب أن ننظر إلى الحاضر تارة وإلى الماضي تارة أخرى لنبني من أجل مستقبل أفضل وأسعد .

وبعد : فان العلم سلسلة مترابطة بأحكام بدأت منذ خلق الإنسان أو منذ بدأ يتحضر ، وستنتهي يوم تقوم الساعة ويفور التنور . وقد ساهمت في صياغة حلقات هذه السلسلة معظم شعوب العالم ، وكان للحضارة العربية الإسلامية القسط الأوفى والأرفع في هذا المضار . فحق لها اذن أن تتبوأ المكان الأسنى في سلم الحضارات .

الموصل - العراق الدكتور فيصل دبدوب

مصادر البحث

١ — نص رسالة الحواس : لعبد اللطيف البغدادي
٢ — عيون الأنبـاء : لابن أبي أصيبعة

٣ — طبقات الشافعية	:	للسبكي
٤ — انباه الرواة	:	للقفطي
٥ — شذرات الذهب	:	لابن العماد
٦ — عقود الجوهر	:	لجميل العظم
٧ — التعريف بالمؤلفين	:	للعزاوي
٨ — معجم المطبوعات	:	لسركيس
٩ — تاريخ العلم	:	للدكتور سارطون
١٠ — كنوز الأجداد	:	لكرد علي
١١ — تأريخ العلم	:	للدكتور عبد الحليم منتصر
١٢ — العلم والانسية الجديدة	:	للدكتور سارطون
١٣ — فوات الوفيات	:	لابن شاكر الكتبي